هكذا كان موقف الشاعر الأندلسي من السجن أنه موقف عدائي رسم الحزن على وجوه أصحابه وترك أثره على نفسيته فمنهم من يبكي على الحياة ومنهم من ضاقت به السبل وراح يصرخ ويستعطف دون جدوى ومنهم من راح يصف حاله وصفا دقيقا ومعبرا عن نفسيته القلقة الحائرة فهو أشبه بكتلة من العواطف والانفعالات، من حين إلى آخر فكان متمردا في أول أيام سجنه متذمرا في أيام أخرى وهناك من وصف قساوة المكان وما فيه من وحشة ورهبة، ووصف السجن وأبوابه، وهناك من آثر السجن على نفسيته فسلك طريقا مصطبغا بالصبغة الدينية والرجوع إلى الله تعالى. بل وتحول السجن إلى باعث معاناة قاسية.

المبحث الثالث

الغربة المكانية والحنين في الشعر الأندلسي

كان فتح الأندلس حدثا تاريخيا عظيما يستحق أن يرسم له التاريخ أروع الصور والبطولات وكان فتح الأندلس ((أثناء حركة الامتداد الديني والفكري البشري التي بعثها الإسلام في عالم القرن السابع الميلادي)) [1] وكان هذا الحدث فاتحة خير للعرب والمسلمين.

ورافق هذا الفتح عدد لا يستهان به من العرب تركوا بلادهم وساروا نحو الغرب من أجل دافع ديني، إلا أن مشاعر هؤلاء كان لا بد لها أن تتأثر بذلك المكان البعيد عن الأصل (المشرق) فعاشوا هناك بأجسامهم، أما الروح فهي باقية في المشرق.

ورغم كل هذا استقر العرب في الأندلس، وحاولوا توطين النفس على اتخاذ الأندلس دارا دائمة، إلا أن هذه المشاعر كانت تنتابها غربة شديدة في ذلك المكان مردها إلى أن العربي في بداية الفتح ما زال ينتابه القلق والخوف على حياته فهو يعيش في بيئة محاطة بالأعداء هذا من جهة ومن جهة أخرى طبيعة هذه الجزيرة النائية المختلفة تماما عن الجزيرة العربية، سواء أكان من حيث المناخ أم من خلال

(١) فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥٩م، ٤١٧.

نمط الحياة فيها فقد وجد العرب خليطا غير متجانس من البشر، وظلوا ملتفتين بأذهانهم ونفوسهم إلى المشرق يستطلعون أخبارهم، ويطبقون عاداتهم، وأصولهم العربية، وهذا ما أشار إليه الدكتور أحمد أمين بقوله: ((كانت السنون الأولى بعد الفتح سني دهشة وتخمر، فالبيئة غريبة عن العرب، والمناظر مختلفة عن مناظر وطنهم، وعادات البلاد وتقاليدها مختلفة عن عادات الصحراء وتقاليدهم، فهم يحتاجون إلى زمن يتأقلمون فيه لمواجهة هذه الحالة الجديدة))[1].

إن تلك الغربة المؤلمة كانت واقعا أساسيا إلى الحنين حين تتشابك المشاعر والأحاسيس التي يصعب الفصل بينها لا سيما الحنين إلى الديار وساكنيها ويذكر لنا الجاحظ أن العجم قالت ((من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة))[2] وهذا الاشتياق نجده وبشكل واضح لدى الجيل الفاتح فقد ترك وراءه دولة عربية إسلامية كانت في أوج عزها، لذلك نجد الشعر الأندلسي في بداية الفتح يتسم بطابع مشرقي خالص مرده إلى الأسباب التي ذكرناها.

وهناك أمر آخر لا بد من التنبيه عليه وهو خاص بالشعراء ذاتهم فهم ((حين كانوا يغادرون أوطانهم كانوا يغادرونها على كره منهم ومن ثم كانوا يحسون بالانكسار والحزن، ذلك لأنهم كانوا يغادرون أشياء كثيرة غير هذه الأشياء المادية التي كانت تحيط بهم ... فقد تكون هذه الأشياء علاقة حب أو أصواتا يأنس بها في ضوء القمر أو ارتباطا بنخلة تمت على عينه أو ينسجم كما كان يتألق في السماء كان يتألف في نفسه ... المهم إنه كان يغادر هذه الأشياء مهموما محزونا))[3]. وهذه الأحاسيس والمشاعر الملتهبة من فرقة المكان أبقت ((الشاعر الأندلسي يتمزق قلقا وإحساسا بالغربة وظل شكواه عنيفا، وبات حنينه كبيرا شامخا لا تهزه هبات الريح

(١) ظهر الإسلام، ٩٩/٣.
(٢) الحنين إلى الأوطان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢م، ٨.
(٣) الغربة المكانية في الشعر العربي، د. عبده بدوي، مجلة عالم الفكر، مج١٥، ع١، ١٨٤؛ وينظر: قضايا حول الشعر، د. عبده بدوي، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦م، ٦٣.

العاتية))[1].

ونستحضر هذه الغربة المكانية والتي يثيرها الحنين في وجدان الشاعر الأندلسي صورا بارعة معبرة عن الألم والحرقة والحزن فكان ((الحنين إلى المشرق يمثل جانبا كبيرا من أماني شعراء الأندلس منذ أن استوطن العرب تلك البلاد))[2].

وأول من عصفت به رياح الغربة والحنين من شعراء الأندلس هو الأمير عبد الرحمن الداخل (١٧٢هـ) فبعد أن حلت النكبة بالدولة الأموية وفر إلى الأندلس ووجد فيها الملاذ الآمن وأغرق بالترف والنعيم والجاه وغير ذلك إلا أنه لم ينسه ذلك لحظة واحدة ديار الأهل والأحبة في الشرق هذه الغربة وما صاحبها من حنين في نفسية الداخل كان مردها إلى المكان الجديد الذي طرأ عليه من جهة وما آلت إليه الدولة الأموية في المشرق من جهة أخرى.

ويذهب الدكتور الطاهر أحمد مكي إلى تعليل غربة الداخل بأنه ((خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بينهم وانتهى به المطاف أميرا على مفاطعة من مقاطعات الخلافة محدودة المساحة والقدرة والمجد صنعها بيده وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه فهي لا تعوضه ولا تشبه أمجادهم هناك)) [3].

إذا ظلت المحن والأهوال التي مرت به وتعرض لها أهله وقومه في الشام تحز في نفسه، وتؤلمه فحاول أن ينفس أو يعبر عن معاناته بأبيات شعرية تصور عمق الغربة التي عصفت به فجاءت الأبيات التي يتشوق فيها إلى معاهدة في الشام خير شاهد على ذلك حين قال:

أيها الراكب المميم أرضي ... أقر من بعض السلام لبعض
إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمض

(١) مدخل إلى الأدب الأندلسي، ١٣٥.
(٢) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، ٢٤٨.
(٣) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، حرر بعضها وترجم البعض الآخر، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٨٠، ٢٣٧.

قـــد قضـــى الله بـــالفراق علينـــا فعســى باجتماعنـا ســوق يقضـــي[1]

هذه الأبيات التي تناقلتها المصادر الأدبية والتاريخية بشكل عام جاءت لتصور غربة الشاعر في ذلك المكان وحنينه إلى معاهد الشام وديار الأحبة فعندما رأى راكبا هاجت عواطفه، وتحركت مشاعره نحو تلك الديار فيطلب منه إلقاء السلام على أهله ويظهر تلك المشاعر المتسمة بالتمزق والضياع بأنه يحيا بجسمه في أرض الغربة أما قلبه فهناك في ديار المشرق ثم يعزو هذا كله إلى قضاء الله وقدره الذي لا مرد له.

ويتسع هذا الإحساس بالغربة لدى الداخل والحنين إلى المشرق عندما يرى نخلة من تلك البلاد ولهذا يقول:

تبـدت لنـا وسـط الرصـافة نخلـة تناءت بأرض الغرب عن بلد الذخل
فقلـت شـبيهي فـي التغـرب والنـوى وطـول التنـائي عـن بنـي وعـن أهـل
نشـأت بـأرض أنـت فيهـا غريبـة فمثلـك مـن الإقصـاء والمنتـأى مثلـي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالويل [2]

فالنخلة التي انتزعت من موطنها العربي وعاشت في ذلك المكان النائي ذي الأجواء الباردة قد أثارت إحساس الداخل بالغربة فهي غريبة كما له، وراح يعقد مشابهة بين حالة في ذلك المكان المغترب عن المشرق وحال تلك النخلة العربية عن بلاد النخل، ثم يدعو لها بالسقيا لما رأى تلك المشابهة أنها مناجاة نفس حزينة ألهبتها رياح الغربة حيث دارت الأبيات في فلك الانفعالات العاطفية التي يمر بها الداخل والتي تركتها ذكريات ديار الأهل والأحبة.

ورغم الغربة التي عصفت به إلا أن الداخل كان همه هو فتح الأندلس بكونه

(١) جذوة المقتبس، ٣٨/١؛ وينظر: بغية الملتمس، ٣٢/١؛ نفح الطيب، ٣٨/٣؛ المعجب، ١٥-١٦.
(٢) البيان المغرب، ٦٠/٢؛ نفح الطيب، ٥٤/٣.

مكانا بعيدا عن نفوذ العباسيين وانشغال الأخيرين بمشاكلهم الداخلية[1]. وعلى الرغم من اهتمامه بشؤون الفتح إلا أنه بعد استقرار الدولة نجد الداخل ترميه الغربة مرة أخرى في بحر الأحزان عند رؤيته للنخل فيقول:

يا نخل أنت غريبة مثلي ... في الغرب نائية عن الأصل
فابكي وهل تبكي مكبسة ... عجماء لم تطبع على خيل
لو إنها تبكي إذا لبكت ... ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلني ... بغض بني العباس عن أهلي [2]

فهو يخاطب تلك النخلة وكأنها كائن حي يجد فيها مشابهة في الحال له فهي نائبة عن مكان النخل (المشرق) كما هو ناء عن تلك الديار فتشاركه تلك الغربة والبعد بل ويجعل منها إنسانا تدرك كراهية بني العباس لبني أمية وتشاركه هذا الذهول.

لقد أوقعته الغربة في صراع نفسي بين الافتخار بالقوة والزهو بشجاعته وهمته، وبين الشعور بالضعف والحنين الذي يفقد النفس توازنه ويسلمها إلى البكاء ويستعين بتلك النخلة بأسلوب شعري حزين تجد فيه صدق المشاعر والأحاسيس ويحملها جزء من هذه الغربة المؤلمة.

لقد ظل مثل هذا الارتباط بالمكان مرافقا للشعراء الذين رحلوا إلى الأندلس في تلك الديار – بداية الفتح – وتترد كثيرا أصداء الماضي في أشعارهم تعبيرا عن الشوق والحنين ومن خلال تسجيلها للإحساس بالوحشة والحزن واللوعة ومن حيث الصور نفسها التي جسدت هذا الإحساس ونقف مع ذكريات حزينة ومؤلمة وشوق

(١) ينظر: عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسة الداخلية والخارجية، إبراهيم ياسر خضير الدوري، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م، ٤٢.
(٢) الحلة السيراء، ٣٧/١.

عارم إلى مكان النشأة ومكان الأهل والأحبة لشاعرة الأندلس قمر[1] وهي تتشوق إلى بغداد وتبعث حسراتها فهي القائلة:

آهـــا علـــى بغـــداد وعراقهـــا ... وضـــيائها والســـحر فـــي أحـــداقها
ومجالهـــا عنـــد الفـــرات بأوجـــه ... تبـــدو أهلتهـــا علـــى أطوافهـــا
متبختـــرات فـــي النعـــيم كأنمـــا ... خلـق الهـوى العـذري مـن أخلاقهـا
نفســـي الفـــداء لهـــا فـــأي محاســـن ... في الدهر تشرق من سنا إشراقها[2]

إنها تذكرت وتحسرت على بغداد – دار السلام – كحسرتنا عليها اليوم – ذلك المكان الذي يذكرها بطفولتها فتشكلت إليه بحنين عميق وإحساس متدفق بالحرارة مفدية لها بنفسها.

وتتصاعد الغربة والحنين إلى أماكن الأهل لدى الغزال فيكتب أبياتا يبدؤها بالشوق العارم لقرطبة ذلك المكان الذي أودعه ذكرياته العميقة وضم أهله وأحبته حيث يقول:

كتبـــت وشـــوق لا يفـــارق مهجتـــي ... ووجـــدي بكـــم مســـتحكم وتـــذكري
بقرطبـــة قلبـــي وجســـمي يبلـــده ... نأيت بهـا عـن أهـل ودي ومعشـري
سـقى الله مـن مـزن السـحائب ثـرة ... ديـاركم اللاتـي حـوت كـل جـؤذر[3]

ويتداخل حنينه إلى المدينة مع حنينه إلى الحبيبة التي ظلت في ذكراه وكانت سببا من أسباب غربته فبعده عنها فيه ألم وحزن حيث يقول:

بحـق الهـوى أقـر السـلام علـى التـي ... أهـيم بهـا عشـقا إلـى يـوم محشـر

(١) من الجواري الشاعرات التي جلبن من المشرق كانت جميلة الصورة ذكية أديبة راوية حفاظة مع فهم بارع وفصاحة وبيان كانت تقول الشعر على سجيتها، عاشت في القرن الثالث الهجري مع مولا ها إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية. ينظر: نفح الطيب، ١٤٠/٣؛ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ١٣٠.
(٢) نفح الطيب، ١٤١/٣.
(٣) ديوان يحيى الغزال، ٧٥.

لئن غبت عنها فالهوى غير غائب ... مقيما بقلب الهائم المتفطر
فوا حزني أن فرق الدهر بيننا ... وكدر وصلا منك غير مكدر[1]

إنه حنين لا حدود له فنرى الألم النفسي يلتهب في أعماق الشاعر بفعل الارتباط بتلك الحبيبة، وعواطف منفعلة ألهبتها مشاعر حب الديار ومن سكنها وتتواصل هذه العواطف بالبكاء على تلك الديار وأهلها وإقرار السلام عليها فيقول:

بكيت فما أغنى البكاء عند صحبتي ... وشوقي إلى ريم من الأنس أحور
سلام سلام ألف ألف مكرر ... ويا حاملا عني الرسالة كرر
ألا يا نسيم الريح بلغ سلامنا ... وصف كل ما يلقى الغريب وخبر
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتي ... سميك وأقرأها على آل جعفر[2]

فهو يبكي في غربته ولكن هذا البكاء يبقى دون جدوى ويأتي بتكرار لفظتي (سلام سلام) ليؤكد به حنينه ولا يكتفي بذلك بل يكلف الريح سلامه إلى تلك الديار ومحبوبته وساكنيها ويطلب منه أن يصف حاله في تلك الغربة وما آل إليه ويجعل شعاع الشمس يشاركه في إبلاغ السلام والتحية إلى الحبيبة.

وتتمحور هذه المعاني في الشكوى ووجع الفراق وألم البعاد بقصائد أخرى لا تخرج عن سابقتها من حيث الشعور والصحة حيث يقول:

إقر السلام على إلف كلفت به ... قد رمت صبرا وطول الشوق لم يرم
ظبي تباعد عن قربي وعن نظري ... فالنفس والهة من شدة الألم
كنا كروحين في جسم عذاؤها ... ماء المحبة من هام ومنسجم
إلفين هذا بهذا مغرم كلف ... وواحد في الهوى منا بمتهم
لله تلك الليالي والسرور بها ... كأنما أبصرتها العين في الحلم

(١) ديوان الغزال، ٧٥-٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ٧٦.

ففرق الدهر شملا كان ملتئما منا وجمع شملا غير ملتئم
ما زلت أرعى نجوم الليل طالعة أرجو السلو بها إذا غبت عن نجمي[1]

كان وراء تلك الغربة المكانية حنين إلى الأهل والأحبة، فالغزال يجد في هذا الحنين ما يطفئ تلك النار بل ورأى فيها واجبا ووفاء للمحبوب أن يرسل إليه هذه الأبيات، فهو يقرأ السلام عليها وقد أضناه الصبر ويصف لنا نفسه الوالهة الملتهبة من الفراق ويحن إلى الماضي بتذكر الأيام الغوالي التي قضاها معها فهما كروحين في جسد واحد، غذاؤها الحب والوفاء أما الليالي، فيحن لها تلك الليالي التي قضاها مع الحبيب، ويستعتب الدهر المفرق شملهم والجامع شمله مع آخرين لا يألفهم ويساهر نجوم الليل، ناظرا إليها متسليا معها، واضعها بمكان حبيبته التي غابت عنه.

وبعد هذا فلا يجد سبيلا إلا الشكوى إلى الله بقوله:

أشكو إلى الله ما ألقى لفرقته شكوى محب سقيم حافظ الدمم
لو كنت أشكو إلى صم الهضاب إذا تفطرت للذي أبديه من ألم
إن غاب جسمك عن عيني وعن فما يغيب عن الأسرار والوهم
نظري تبكي أليفا على فرع من النشم[2]
إني سأبكيك ما ناحت مطوقة

إنه يقدم في شكواه من غربته تجربة رائعة محكومة برؤية واعية في بث روح الأسى والتوجع، ويعكس لنا المعاناة النفسية التي ألمت به، ويبدو أن العواطف والانفعالات قد سكنت أحشاءه وكانت وراء هذا الإبداع فبعد أن أضنته الغربة بث شكواه إلى الله عله بفرج ما حل به هذه الشكوى لو ألقيت على صم الهضاب لتفطرت

(١) ديوان الغزال، ١٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ١٠٥.

من شدة ما فيها من أنين وحسرة وراح يخفف هذه الغربة وإقناع نفسه الحزينة بأنه حتى لو غاب الجسم فهو في الخيال وآلى على نفسه البكاء إليها وإلى ديارها كلما ناحت حمامة، وفاء لهذا الحب.

إن آثار الغربة لا تمحى من الذاكرة وتبقى تحز في نفس الإنسان مشاعر الألم والمعاناة فهذا محمد بن عبد السلام[1] (٢٦٨هـ) يتذكر غربته في المشرق بعد أن عاد إلى الأندلس حيث يقول:

كأن لم يك بين ولم تلك فرقة ... إذا كان من بعد الفراق تلاقي
كأن لم تؤرق بالعرافيين مقلتي ... ولم تمر كف الشوق ماء مآقي
ولم أزر الأعراب في خبت أرضهم ... بذات اللوى من رامه وبراق
ولم أصطبح للبين من قهوة النوى ... وكأس سقا فيها الفراق دهاق
أخي إنما الدنيا محلة فرقة ... ودار غرور آذنت بفراق
تزود أخي من قبل أن تسكن الثرى ... وتلتف ساق للنشور بساق[2]

فهو يتذكر غربته المريرة ويقص علينا إرهاصات المكان وتحولاته فقد كانت غربة مرة عاش آلامها ويعود به الزمان مرة ثانية، لتخفف من آلام تلك الغربة، وأخذ يلج بعدد من الحكم ضمنها هذه الأبيات لا سيما نظرته إلى الدنيا بأنها دار غربة ودار متاع قليل فلا تركن إليها، واجعل نفسك عابر سبيل، ولجأ الشاعر في البيت الأخير إلى تضمين آية تصور الموقف في يوم النشور.

لقد أصبح الشاعر الأندلسي يعيش في مكان غريب عن طبيعة بلاده الأولى وبين قوم غرباء بعيدين كل البعد عن عاداته وتقاليده فهذا ابن عبد ربه يقول:

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن الحسن بن كليب الحسني رحل إلى المشرق ولقي أحمد ابن حنبل وأقام خمسا وعشرين سنة متجولا في طلب الحديث ثم عاد إلى الأندلس، ومات فيها سنة ٢٨٦هـ. ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ٦٤٨/٢؛ الجذوة، ١١٨/١؛ البغية ١٣٧/١.

(٢) جذوة المقتبس، ١١٨/١؛ بغية الملتمس، ١٣٧/١.

الجسم في بلد والروح في بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد[1]

إنه يعيش بذلك المكان النائي بلا روح فهي مستقرة في موطن الأصل معقودة بالمكان الذي لا تمضي ذكراه، أما الجسم فهو في هذا المكان الغريب.

والشاعر الأندلسي تبقى ديار الأحبة بالنسبة له قطعة من حياته ينظر إليها ويحس بعمق الغربة التي تمر به فلا يجد شيئا سوى العودة إلى مناجاة هذه الذكريات فهذا ابن هانئ يقول:

عهدي به والعيش مثل جمامه نمير بماء الورد والمسك مقطوب
وما تفتأ الحسناء تهدي خيالها ومن دونها آساد خمس وتأويب
وما راعني إلا ابن ورقاء هاتف بعينه جمر من ضلوعي مشيوب
وقد أنكر الروح الذي يستظله وسحت له الأغصان وهي أهاضيب
وحث جناحيه ليخطف قلبه عشاء سذانيق الدجى وهو غربيب
ألا أيها الباكي على غير أيكة كلانا فريد بالسماوة مغلوب
فؤادك خفاق وذكرك نازح وروضك مطلول وبانك مهضوب[2]

فقد ضمن ابن هانئ معاني الحنين لمنزل الحبيب وتذكر أيام الصبا وهناء العيش وطيب الماء ووفرته، ويحاول أن يخفف آلام غربته بأن حبيبته ما زالت تراه ويراها عن طريق الخيال، ثم يعقد مشابهة بين حاله وحال فرخ الحمام فهو يحترق نارا لفراق أبويه كحال ابن هانئ الذي يحترق لبعد الحبيب، ويصف حال هذا الطائر وما ألم به من فقد البصر فلم يعد يعرف مكانه وراح ينادي صقور الليل ويلقي بنفسه بالتهلكة، لينجو بنفسه من ألم الفراق ثم يناجي ابن هانئ ذلك الطير البائس ويقول له

(١) ديوان ابن عبد ربه، ٥٢.
(٢) ديوان ابن هانئ، ٢٢، الجمام: الماء الكثير، النمير: الزاكي من الماء، أسآد: سير الليل، التأويب: سير النهار، السذانيق: الصفر، الغربيب: الأسود.

كلانا منفردان بعيدان كل البعد عن مكان الأهل والأحبة.

هذا هو حال الإنسان العربي يخشى فراق الأرض ومصائب الغربة ويحس بالشوق والحنين أينما سار واتجه، ويحن ابن هانئ أيضا إلى موطن سكناه فهو القائل:

ولي سكن تأتي الحوادث دونه ... فيبعد عن عيني ويقرب من فكري
إذ ذكرته النفس جاشت لذكره ... كما عثر الساقي بكأس من الخمر
ولم يبق لي إلا حشاشة مغرم ... طوى نفس الرمضاء في خلل الجمر
وما زلت ترميني الليالي بنبلها ... وارمي الليالي بالتجلد والصبر
وأحمل أيامي على ظهر عادة ... وتحملني منها على مركب وعر[1]

إنه يحن إلى مكان سكناه، حيث الحبيبة وكلما ذكرته النفس جاشت لذكره واضطربت كما حصل للساقي بعثرته بكأس الخمر، فلم تبق الغربة منه إلا بقية من روحه المعذبة بجمر الفراق، ويبث شكواه من الدهر وما جر عليه فهو يعامل أحبته باللطف ويعاملونه بالبعد والفراق، فليس لديه سوى التعبير عما يلقى من الجفاء والبعد.

إن النفس البشرية حين تداهمها الغربة وتسكن في أحشائها يسيطر عليها اليأس وينتابها القلق فما من سبيل إلا التذكر والحنين إلى الماضي فهذا محمد بن أبي عيسى [2] (٣٣٩هـ) يقول:

ويل أم ذكرى من ورق مغرده ... على قضيب بذات الجزع مياس
رددن شجو شجا قلب الخلي فقل ... في شجو ذي غربة ناء عن الناس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة ... بين الأحبة في لهو وإيناس

(١) ديوان ابن هانئ، ٢١٤-٢١٥، الرمضاء: شدة الحر.
(٢) محمد بن أبي عيسى من بني يحيى بن يحيى الليثي كان فقيها جليلا عالما موصوفا من أهل الأدب والشعر، أورد له أحمد بن فرج الجياني بعض أشعاره توفي سنة ٣٣٩ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ١٢٦/١؛ تاريخ قضاة الأندلس للنباهي، المكتب التجاري للطبع والنشر، بيروت، ٦١-٦٢.

هجن الصبابة لولا همة شرفت فصيرت قلبه كالجندل الفاسي
كم بين آل أبي عيسى وراكبهم من صحن سهب وطود شامخ راسي

ومن بحار إذ هالت بصاحبها أهدت له الخوف محمولا على الـــــــــــــــــــــــــــــراس[1]

فقد أورد الشاعر هذه الأبيات التي تنم عن فجاعة الخطب وشدة الغربة وضمنها عددا من الألفاظ الحزينة هي (ويل، شجو، ناء عن الناس، هجن) هذه الألفاظ تعكس شدة غربة الشاعر ويجعله يتذكر الزمن الماضي بقرطبة حيث اللهو والأنس وراح يقرن بين حالة اليوم وحال غربته التي صبرت قلبه كالحجارة القاسية ويتساءل كم البعد بينه وبين قومه وما بينهم من جبال وسهول وبحار هائجة؟.

أما ابن شخيص فهو الآخر يحن إلى موقع أنس يجمع بين الظرفاء وأهل الشراب يعرف بالركين فيقول على لسان صاحب له غاب عن الركين:

أقر السلام على الركين وقل له مذ غبت لم أرتح لظل نسيم
سقيا لظلك بالعشي والضحى لبرد ماءك في احتدام سموم
لو كنت أملك منع مائك لم يقم في ظل ساحك منتم للئيم[2]

وتصل هذه المشاعر إلى عالم الأندلس وفقيهها ابن الفرضي[3] (ت:٤٠١ هـ) فيقول في مقطوعة له معرجا على معاني الفراق وطول الزمان وتباعد المكان

(١) جذوة المقتبس، ١٢٦/١.
(٢) شعر ابن شخيص الأندلسي، ٨٥.
(٣) عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي يكنى بأبي الوليد ويعرف بابن الفرضي كان من أهل قرطبة ورحل إلى المشرق سنة ٣٨٢هـ وهو صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس وكان له سعة في الرواية وحفظ في الحديث ومعرفة بالرجال وكان بارعا في الأدب والفصاحة قتل سنة ٤٠١ هـ. ينظر: الذخيرة، ١/ ٢ /٦١٤-٦١٦؛ الصلة ٣٩١/١؛ بغية الملتمس، ٤٣٣/٢؛ المغرب، ١٠٣/١.

والأهل والأخوان:

مضت لي شهور مذ غبتم ثلاثة ... وما خلتني أبقى إذا غبت شهرا
وما لي حياة بعدكم استلذها ... ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرا
ولم يسلني طول التنائي هواكم ... بل زادني شوقا وجد لي ذكرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا ... وهل نافعي أن صرت أستعتب الدهرا
تالله ما فارقتكم عن قلى لكم ... ولكنها الأقدار تجري كما تجرى
رعتكم من الرحمن بعين بصيرة ... ولا كشفت أيدي الردى عنكم سترا[1]

فابن الفرضي يعرف كيف يلج إلى نفس الإنسان ويحاورها ويطرح عليها مشاكلها والمتلقي لنصه الشعري يجد ذلك، فهو من أول الأبيات يركز على ارتباط الزمن وجدليته بالمكان فالفراق يعني بدء مغادرة المكان ومن ثم الحنين إليه والزمان يعني زيادة في ذلك الحنين إيغالا في مشاعر الغربة وتفعيلا لها فأبيات ابن الفرضي دارت أولا وآخرا حول الزمن بدليل ذلك (مضت لي شهور) و(وما لي حياتي بعدكم) و(الأقدار تجري) ومع هذا الكم الهائل من ألفاظ الزمان يمكن لنا الكشف عن معاني المكان المعنوية التي رافقت الأبيات وترابطت مع الزمان كما يأتي:

(مضت لي شهور) ← المجافات الحقيقية عن المكان لمدة طويلة.

(وما لي حياة) ← السأم والضجر من المكان لمدة طويلة.

(سأستعتب الدهر) ← الغربة والضجر من المكان الجديد.

(والأقدار تجري) ← غربة مكانية جبرية التي أقام فيها الشاعر رغما عنه.

ومن هذه المشاكل يعلمنا ابن الفرضي صعوبة الحياة في بلد غير بلده ومعاناة من تجبر الأقدار ويلزمه الزمان على المعايشة في الموطن الجديد.

إن فراق الأهل والأحبة لأمر في غاية الصعوبة وكما أشرنا سالفا تبقى

(١) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ١٢/١؛ وينظر: البغية، ٤٣٥/٢؛ والصلة، ٣٩٥/١.

الذكريات هي المعين الأول على هذه الغربة فهذا عبد الوهاب المالكي[1] (٤٢٢ هـ) يقول:

فـدى لـك يـا بغـداد أهـلا ومنـزلا ... ولـم ار فيهـا مثـل دجلـة واديـا
ولا مثـــل أهليهـــا أرق شـــمائلا ... وأعـذب ألفاظـا وأحلـى معانيـا[2]

فهو يفدي بغداد بالأهل والمنازل ويحن إلى دجلة وإلى طيب أهلها وحلاوة ألفاظهم ورقة طباعهم وأخلاقهم.

ويتطور أثر الغربة على شاعرنا المالكي فيأخذ ببكاء نفسه حيث يقول:

أنـــا فـــي الغربـــة أبكـــي ... مـــا بكـــت عـــين غريـــب
لـــم أكـــن يـــوم خروجـــي ... مـــن بـــلادي بالمصـــيب
عجبـــا لـــي ولتركـــي ... وطنـــا فيـــه حبيبـــي[3]

إنها معاناة نفس غريبة حزينة فهو يبكي في غربته بكاء شديدا لم تبكه عين غريب آخر ويخطئ نفسه باتخاذها قرار مغادرة بغداد متعجبا كيف يترك وطنا فيه الحبيب.

إن الشاعر الأندلسي قد وعى حاضره تماما وهذا الوعي ((لا يمكن إلا أن يكون وعيا إنسانيا بكل ما في كلمة الإنسانية من معنى الامتداد في الزمان والمكان))[4] حيث أصبحت الغربة تمزق نفس الشاعر وأصبحت ذاكرته وحنينه مأوى لغربته

(١) عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي ولد في بغداد سنة ٣٦٢ هـ وتوفي سنة ٤٢٢ هـ. ينظر: تاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١١/٣١-٣٢؛ الأعلام، ٤/٣٣٥.
(٢) الذخيرة، ٤/٢/٥٢٧.
(٣) المصدر نفسه، ٤/٢/٥٢٥.
(٤) تجارب في الأدب والنقد، د. شكري عياد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ١٩.

وهذا ما نلمسه في قول أبي عمر الباجي[1] (ت:٤٣٥هـ):

سلام على صفات الكرم ... على الغرر الفارجات الغمم
فلا أنس ذاك الحيا ... وتلك المعاني وتلك الشيم
ودنياكم طلقة المجتلى ... ودهر بكم واضح المبتسم
وساعات أنس تجول النفوس ... لديها مجال حمام الحرم
أحن إليكم ومن شاقه ... تذكر عهدكم لم يسلم[2]

فهو غريب في المشرق برح به الشوق فحن إلى الأندلس وتذكر أيامها وساعات أنسها وبهجتها وبقيت هذه الذكريات تخفف بعض الشيء عن غربته.

وعلى الرغم من قساوة الغربة فإننا نجد الشاعر الأندلسي قد عاش في حالة اغتراب[3] أيضا فهذا الغزال يشعر بالانفصال عن الآخرين والاغتراب عن جيل لا يعرفه، نشأ فيه من غير أواصر تربطهم به حيث يقول:

أصبحت والله محسودا على أمد ... من الحياة قصير غير ممتد
حتى بقيت بحمد الله في خلف ... كأنني بينهم من خشية وحدي
وما أفارق يوما من أفارقه ... إلا حسبت فراقي آخر العهد
أنظر إلي إذا أدرجت في كفني ... وأنظر إلي إذا أدرجت في اللحد

---

(١) الفقيه أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي، جليل القدر، رحل إلى المشرق وحج وولي قضاء حلب ثم عاد إلى الأندلس، توفي ٤٣٥هـ. ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني (٥٩٧هـ)، تح: عمر دسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٤م، ٣٣٧/٢/٤؛ المغرب، ٤٠٥/١.

(٢) الخريدة، ٣٣٨/٢؛ وينظر: المغرب، ٤٠٥/١.

(٣) الاغتراب شعور ينتاب الفرد بالانفصال عن الآخرين داخل المكان الذي يعيشه الإنسان، وهو اشد قساوة من الغربة لكونه يحدث بين الأهل والأحبة ويكون داخل نفس الإنسان أيضا والمكان نفسه ولمزيد من الاطلاع ينظر: الاغتراب (بحث)، د. قيس النوري، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج١٠، ع١، ١٩٧٩م، ١٣-١٤؛ الاغتراب في الشعر العباسي (القرن الرابع الهجري)، د. سميرة السلامي، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ١٥١-١٨٠؛ المتنبي بين البطولة والاغتراب، محمد شراره، جمع وتحقيق: حياة ثرارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ٣٥.

وأقعد قليلا وعاين من مقيم معي ... ممن يشيع نعشي من ذوي ودي
هيهات كلهم في شأنه لعب ... يرمي التراب ويحثوه على خدي[1]

هذه النظرة المتشائمة عن انفصال الشاعر عن البيئة التي يعيش بها وعن أناسها ربما كان مرده إلى اختلاف في السلوك أو الآراء أو الأذواق فينظر إليهم نظرة توجس وخيفة من الحسد ويرثي نفسه ويظن بهم ظن السوء عندما يحملون نعشه فلا أحد يهتم له فكلهم لاهون عنه.

ونجد هذه النظرة تجاه الناس لدى مؤمن بن سعيد[2] (ت:٢٦٧هـ) حيث يقول:

إنما أزري بقدري أنني ... لست من بابه أهل البلد
ليس منهم غير ذي مقلية ... لذوي الألباب أو ذي حسد
يتحامون لقائي مثلما ... يتحامون لقاء الأسد
طلعني أثقل في أعينهم ... وعلى أنفسهم من أحد
لو رأوني قعر بحر لم يكن ... أحد يأخذ منهم بيدي[3]

إنه يقاسي الاغتراب والانفصال الحاد عن جميع الناس فيرسم لنا رؤية الناس تجاهه فيرى أنه ليس منهم وبعيدا عنهم ويرى أنهم يتحاشون لقاءه ولا يطيقونه كما يخشون لقاء الأسد لذا فهو يحس باغتراب عندما يظهر لهم ورؤيتهم له أثقل من الجبال، وهذا نابع من سوء الظن بهم، حتى يرى بأنهم لو رأوه في قاع بحر لما أنقذوه.

---

(١) ديوان الغزال، ٦٤.
(٢) أبو مروان مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس، رحل إلى المشرق فلقي أبا تمام وروى عنه شعره، واتخذ من قرطبة موطنا له، وكان شاعرا مشهورا وكان فحل شعراء قرطبة، شمت بالوزير هاشم عندما سجن، وبعد خروجه نصب له حبال السعاية عند الأمير محمد حتى ألقي في الحبس وأدى إلى هلاكه في سنة ٢٦٧ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٥٦٣/٢؛ المغرب، ١٣٢-١٣٣.
(٣) يتيمة الدهر، ٢٤/٢.

ويصرح الرمادي عن اغترابه بشكل مباشر عندما يقول:

اغتربنـــا أنـــت مـــن بجانـــه وأنـــا مغتـــرب مـــن قرطبـــه
واجتمعنـــا عنـــد إخـــوان الصـــفا بالنـــدى أمـــوالهم منتهيـــه
لاجتمـــاع فـــي اغتـــراب بيننـــا قبـــل المغتـــرب المغتربـــه[1]

فحاله وحال تلك الوردة واحد كون الأول مغتربا عن قرطبة ونزوله في وادي (أش) أما اغتراب هذه الوردة كونها ظهرت في غير وقت الورود.

أما ابن دراج فقد ضاقت به بلاد الأندلس وأصبح يذم زمانها ومكانها على حد سواء، وما رأى فيها من ضيق العيش وفساد الذوق العام وظلم للرعية واستغلالهم أبشع الاستغلال، حتى حدثت الفجوة بينهم وبين الناس فضاقت به الأرض بما رحبت على غيره وأخذ يصوب نظره تجاه المشرق ولهذا قال:

فـإن غربـت أرض المغـارب مـوئلي وأنكرتـــي فيهـــا خلـــيط وخـــلان
فكـم رحبـت أرض العـراق بمقـدمي وأجزلـت البشـرى علـي خراسـان
وإن بـــلادا أخرجتنـــي لعطـــل وإن زمانـــا خـــان عهـــدي لخـــوان
ســلام علــى الأخــوان تســليم آيــس وسـقيا لـدهر كـان لـي فيـه أخـوان
ولا عرفـــت بـــي خلـــة دار خلـــة عفـا رسـمها منهـا جفـاء ونسيـان [2]

فهو يقول عندما ضاقت بي السبل وأنكرني الأصدقاء آليت الذهاب إلى أرض العراق وخراسان فهي تفرح بقدومي فلا مكان لي في الأندلس بعد أن خانني الزمان، وأدرك ابن دراج عظمة الفجوة بينه وبين أهل زمانه فعانى اغترابه القاسي، وجعل منه إنسانا متشائما من هذا المكان.

وعانى ابن شهيد ما عاناه ابن دراج فرأى أن أهل زمانه أصبحوا حسادا له،

(١) شعر الرمادي: ٥٣.
(٢) ديوان ابن دراج، ٨٩.

يكيدون له ويحاملون الإيقاع به، فعاش في جحيم مظلم من الألم والتشاؤم، ومن الإحساس بالتعاسة والشقاء، ولا نستغرب هذا الشيء لدى ابن شهيد فقد كان إنسانا رقيق المشاعر، مفرط الحساسية، فأحس بالوحشة الخالصة بين أولئك الناس حتى راح يقول:

أرى أعينا ترنوا إلي كأنما ... تساور منها جانبي أراقم
أدور فلا أعتام غير محارب ... وأسعى فلا ألقى امرءا لي يسالم
ويجلب لي فهمي ضروبا من الأذى ... وأشقى امرئ في قرية الجهل عالم
وأوجع مظلوم لقلب وذي حجى ... فتى عربي تزدريه أعاجم
سلام عليكم لا تحية شاكر ... ولكن شجى تنسد منه الحلاقم[1]

إن اغتراب الشاعر الأندلسي كان مرده إلى ((الثورات والفتن الداخلية وما تركته من مجاعات وأمراض تنهش في الفرد الأندلسي، كل ذلك أدنى إلى وجود حالة من عدم الاستقرار والطمأنينة، تركت أثرا سلبيا في نفسه، فضلا عن ذلك الزمان الذي لا يعطي للنابغة، ولا يقدر للكفء درجة الرضا لديه، يدفع الوضيع والحقير إلى أعلى الدرجات والرتب، ويترك العالم بين الجهلة، فهذا الزمن الذي يشعر فيه الأديب بالظلم ويحس بالضياع، ويندب حظه العاثر الذي جاء به إلى جيل غير جيله، وزمن غير زمنه))[2]. فهذا ابن شهيد يعاني من هذه الأحداث جميعا وتعصف به ريح الاغتراب حيث يقول:

هوت أنجم العليا إلا أقلها ... وغبن بما يحظى به كل عاقل
وأصبحت في خلف إذا ما لمحتهم ... تبينت أن الجهل إحدى الفضائل
وما طاب في هذي البرية آخر ... إذا هو لم ينجد بطيب الأوائل

(١) ديوان ابن شهيد، ١٥٣-١٥٤.
(٢) الغربة والحنين في الشعر العربي الأندلسي، أحمد حاجم الربيعي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٣م، ١٣٩.

وكيف ارتضائي داره الجهل منزل إذا كانت الجوزاء بعض منازلي
وصبري على محض الأذى من أسافل ومجدي حسامي والسيادة ذابلي[1]

إذن كان للويلات والمآسي التي حلت بالأندلس في تلك الفترة أثر ها العميق في حياة ابن شهيد فطبعت على نفسه طابع الحزن والكآبة، وضخمت الإحساس بالاغتراب فبعد أن هوى فلك بني أمية رأى ابن شهيد أن العالم والعاقل أصبح مغبونا لا حيلة له، فلا طيب للعيش في هذا المكان بعد أن حلت الفتنة، ولم يرتض الإقامة والعيش في قرطبة بعدما أصابها الجهل والسفه، وأصبح مغتربا عنها بعيدا كل البعد.

إن تجربة الانفصال والاغتراب عن الآخرين كانت قاسية جدا لشعراء الأندلس وأصبح (المجتمع كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشاعر والضوء فازداد شعوره بأنه منبوذ، محاصر، مخنوق))[2]، هكذا وجدنا الشاعر الأندلسي عانى الغربة وما فيها من مآسي وبعد وحن إلى الديار والأهل، وتجسدت في هذه الأشعار صدق العواطف والأحاسيس المعبرة عن خلجات النفس الحزينة، وعانى الشاعر الأندلسي الاغتراب، وأحس بوجود فجوة عميقة بينه وبين مجتمعه، فكانت المعاناة وكانت ردود الفعل قاسية تجسدت بالتشاؤم والحزن.

(١) ديوان ابن شهيد، ١٤٤.
(٢) مقدمة للشعر العربي، أدونيس، علي أحمد سعيد، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ٣٨.